جريمة القتل عشية رأس السنة

كانت كارنونتوم Carnuntum تحتل موقعاً قرب قرية بترونيل Petronell الحديثة فيما بين هين برج Hainburg وديوتسش - التنبرغ Deutch-Aterburg وكانت هذه المدينة الرومانية تظهر عبر الدانوب وكأنها منطقة حرجية لم تصل إليها المدينة بعد. وإذا كانت الحياة في بلاد الغال خالية من مقومات الراحة والرفاهية بالنسبة لجوليا السورية، فإن بلاد الغال تعتبر ملاذاً وملجأ وحماية، بالنسبة للمدينة الجديدة التي قدمت إليها جوليا مع زوجها. فقد أضيفت بانونيا Pannonia إلى الإمبراطورية الرومانية على يد أغسطس بعد أكثر من نصف قرن من اجتياح يوليوس قيصر لبلاد الغال. فلم تكن المؤسسات الرومانية قد رسخت جذورها هناك، ليس بسبب قصر الوقت فحسب، بل بسبب وضع تلك الولاية وكونها جزءاً من المنطقة الحدودية والوضع الذي لا يخلو من الإزعاجات والمتاعب. وبينما كانت لوجدونوم مركزاً ناجحاً من مراكز التجارة تحيط به من جميع الجهات الرعاية الرومانية التي أتت أكلها وبدأت في جني ثمارها. وبالمقابل نجد كارنونتوم مركزاً عسكرياً واقعاً على حدود منطقة معادية وهي مركز من مراكز نقل الكهرمان من الشمال.

دلت الحفريات التي أجريت في الأزمنة الأخيرة على أن الحالة المعيشية في تلك المناطق الحدودية كانت تقل عن مثيلاتها في أصقاع الإمبراطورية الأخرى. وكانت هذه الأوضاع من عدم الراحة ممكنة التحمل لولا تلك العزلة التي شعرت بها جوليا وانعدام الرفقة والعشرة؛ فقد اعتادت جوليا على مرافقة زوجها في رحلاته وحملاته ضاربة عرض الحائط المنغصات والصعوبات الجسمانية. ولكنها كانت بعد التجارب التي لاقتها في كارنونتوم حريصة على اتخاذ بعض الأصدقاء للعناية بها والذين كانوا يقاسمونها اهتماماتها ويستطيعون الخوض معها في أحاديث لا تخلو من الذكاء والفطنة.

كان زوجها مشغولاً بترقب الأخبار التي يتوقعها من روما عن الإحاطة بكوموديوس ورفع بيرتنكس إلى سدة الحكم وترقيته شخصياً إلى رتبة الوريث الإمبراطوري. فالولاية التي كان يحكمها كانت كما قال نقطة حساسة على حدود الإمبراطورية وكانت مسرح التدخل لقوات البرابرة في زمن ماركوس اوريليوس، والذين تمتعوا بالقوة والبأس بحيث اخترقوا الحدود وتقدموا نحو

جبال الألب إلى إيطاليا. وقد كانت الإمبراطورية بحاجة إلى عشر سنوات من القتال لطرد هؤلاء من الأراضي الرومانية، ومع أن هذا العمل قد تم في الوقت الذي وصل به سبتموس سيفيروس إلى بانونيا العليا، كان الخوف من إعادة الكرة يستولي على الجميع ويتطلب الحيطة والحذر التام. فقد كان سبتموس يتذكر الخطر كلما نظر عبر نهر الدانوب من الهضبة الجبلية التي بنيت عليها مدينة بانونيا. فالشاطئ الآخر للدانوب كان أرضاً محايدة، وبلاداً غير مسكونة منع الجرمان من الدخول إليها بموجب معاهدة السلم الأخيرة وكانت قطعة الأرض هذه تمتد قرابة عشرة أميال في العمق في كلا ضفتي النهر وقد بنيت عليها سلسلة من أبراج المراقبة.

كانت هذه أول تجربة يمارسها سبتموس في أقصى حدود الإمبراطورية، في مهمة تختلف عن جميع المهمات التي انيطت به في سوريا وفي بلاد الغال. وربما أوحت له هذه الحالة بتلك الفكرة التي طغت على تفكيره، وهي توسيع حدود الإمبراطورية بحيث لا تعتمد على نقطة أو زاوية حادة كهذه الزاوية. وكان وضع الجندي الروماني في تلك المناطق، حيث منع من الزواج أثناء الخدمة العسكرية، وضعاً لا يحسد عليه. فقد اعتبر متطفلاً ليس له أي جذور في البلدان التي كان يخدم بها وليس له أي تماس اجتماعي مع الوطنيين سوى مع الفتيات عن طريق الاغتصاب أو الزنا. ولهذا فعندما استلم سبتموس زمام الحكم في الإمبراطورية ألغى منع الزواج عن الجنود وقد أصبح الجنود أحراراً في اختيار زوجاتهم، فأصبحوا يختاروهن من سكان القرى على كلا جانبي الحدود. وأصبح الجنود يربون الأسر والأطفال الذين يمتون بصلة القرابة والدم لسكان الحدود الوطنيين ويساهمون في التصاقهم بالأرض. وبذلك نشأ مجتمع زالت فيه الفروق السياسية على الحدود وحل محلها أواصر القرابة والصداقة.

ولكن الإمبراطورية الرومانية تحملت كثيراً من المتاعب على المناطق الحدودية في المستقبل التي خُرقت ومُزقت ثانية، ولكن الإمبراطورية ظلت حية مدة قرنين آخرين وكان الفضل في بقائها لسبتموس سيفيروس الذي أزال الوضع المحايد للحدود بإحلال أواصر القرابة والمصاهرة وإنشاء جيل مهجن من السكان، وأصبحت تلك المنطقة الوطن المحبب للجندي ولرجل القبائل على قدم المساواة.

كل هذا كان ملقى في غياهب الغيب والمستقبل بينما كان سبتموس يترقب وهو على أحر من الجمر في كرونونتوم، يترقب الأخبار، ومجريات الأمور في روما. وكان عليه أن ينتظر أكثر من سنة كاملة، ولكن مع ذلك فقد حدثت ساعة الصفر بسرعة أكثر مما توقع نتيجة ظروف مفاجئة أجبرت المتآمرين على العمل قبل نضوج خططهم. ولكي نتفهم الأسباب علينا أن نترك سبتموس وجوليا في كارنونتوم لننتقل إلى روما ونصف ما كان يحدث في آخر يوم من أيام عام 192م.

كان يوم رأس السنة وهو أول يوم من كانون الثاني عيداً رسمياً وكان هذا اليوم أيضاً التاريخ الذي يبدأ به القناصل ولايتهم. وهؤلاء الضباط الذين كانوا في أيام الجمهورية يحتلون أعلى المناصب في الدولة قد حرموا من قوتهم التنفيذية منذ تأسيس الإمبراطورية على يد أغسطس، ولكنهم احتفظوا بمركزهم المرموق المبجل كرمز للاستمرار الروماني وقنطرة مرموقة بين الماضي والحاضر. وكان الجميع يترقبون تلك الإشارة التقليدية التي كان الإمبراطور كومودوس ينوي إطلاقها احتفالاً بقدوم العام الجديد وهو عام 193م. وكانت نيته الإعلان في اللحظة المناسبة عن إلغاء منصب القناصل وإحلال نفسه في ذلك المنصب وكانت هذه إشارة خفية لتخلصه نهائياً من مستشاري والده القدماء ومن ثمة فهو سوف يحكم كملك مطلق مستبد.

لقد كان كومودوس في هذا العمل يتماشى مع طبيعته وشخصيته التي لم تستطع مقاومة ذلك الإغراء لإضافة نزوة جديدة إلى نزواته التي تسيء إلى التقاليد والأعراف. فقد قرر أن يظهر أمام الجمهور وهو يلبس لباس المصارعين بدلاً من الأردية الإمبراطورية يحيط به رفاقه المصارعون من كل حدب وصوب لحراسته. وبكلمة أخرى كان الإمبراطور كملك حاكم في هذه الأيام يحضر حفلة رسمية في الدولة وهو يرتدي ثياب كرة القدم وبنطالاً قصيراً يحيط به فريق كرة القدم الذين يرتدون الملابس نفسها.

ولقد كان الإمبراطور بهذا العمل يدغدغ ويرضي مزاجه ولكنه لم يستطع الامتناع عن المباهاة والمفاخرة بخططه أمام إحدى خليلاته وهي فتاة تدعى مارشيا Marcia وقال لها إن هنالك برنامجاً دموياً تراق فيه الدماء قد حفظه لنفسه. ولقد أزعج مقاله هذه الفتاة التي كانت تعتقد أن الاحتفال يقتصر على عرض رياضي. فعملت جهدها لإثنائه عن عزمه ولكن دون جدوى وكانت نتيجة احتجاجاتها أن أغضبته دون استطاعتها إثناءه عن عزمه. وهكذا حدث عندما أَسَرَّ بخططه للاتيوس Laetus رئيس الحرس البريتوري ولايكتوس Electus مستشاره المصري اللذين كانا مجبرين على التعاون معه في التأكد من جمع المصارعين وإتمام الترتيبات اللازمة في غرفة الملابس في الأماكن التي كانوا يحتلونها والتي سوف يخرج منها الإمبراطور وقد ارتدى ملابس المصارعة وأصبح جاهزاً للاحتفال. وقد أصغى هذان لخطط الإمبراطور وأظهرا استحسانهما مع وخز الضمير. فقد كان كلاهما مشتركين في المؤامرة ضد الإمبراطور وكذلك خليلته مارشيا.

وكانت مارشيا Macia هذه فتاة شابة ذات شخصية قوية مصممة وكانت قد استحوذت على حب الإمبراطور منذ بضع سنين، وكانت تتمتع بمعظم امتيازات الزوجة ما عدا الحقوق الرسمية للزوجة، وكان معجباً ومولعاً بوجهها وإنه جعلها تقف لأخذ صورة كالأمازونيات وهي عارية لا تلبس سوى خوذة وتحمل سيفاً وجعل هذه الصورة ختماً يوقع مراسيمه الإمبراطورية. وكانت تكرهه من صميم

فؤادها بسبب وحشيته وولعه بالخمرة وقد استسلمت له دون أي رغبة بعد أن أعدم الشخص الذي كانت تعشقه بتهمة الخيانة، وكانت تتحاشى معانقته قدر إمكانها حيث يطيب لها معانقة ايكلكيتوس Eclectus الذي كانت تهواه. وقد ربيت وهي طفلة على يد أبوين مسيحيين تبنياها ولا يعلم ما إذا كانت قد اعتنقت الديانة المسيحية؟ إلا أنها كانت تحترم أبويها وتتدخل لرفع العذاب والاضطهاد عنهما، وكانت تعمل على إنقاذ المسيحيين الذين كانوا يرسلون للعمل في مناجم الفضة في سردينيا. وصفها أحد القديسين المسيحيين بأنها كانت امرأة تخشى الله وهي فاضلة وغيورة على إنقاذ المظلومين.

ولكن نفوذها لم يكن كافياً في إيقاف الإمبراطور عن تنفيذ عزمه وعندما قامت بآخر محاولة عشية عيد رأس السنة طردها الإمبراطور وشتمها ولعنها، ثم انسحب إلى غرفته لينام نوم القيلولة مصطحباً معه بعض ألواح الكتابة، وبعدها ذهب إلى الحمام وترك الألواح على فراشه، وكانت هذه الألواح تتألف من قطع رقيقة من الخشب (أو من العاج) ملبسة بالشمع كانت تكتب عليها الرسائل بواسطة قلم صغير ذي رأس مدبب، وكان هنالك خيط يدخل عبر ثقب في الألواح يساعد على بقاء الألواح ثانية بعضها مع بعض، وبينما كانت غرفة نوم الإمبراطور خالية، دخل ولد صغير ملحق بالخدم إلى الغرفة ورأى الألواح على الفراش فأخذهم ليلعب بهم، ثم ركض في الدهليز وهو يحمل الألواح حيث اصطدم بمارشيا وسقط. وحالما انحنت لالتقاط الطفل وتقبيله لمحت ما كان يحمله في يديه. وعندما عرفت أن هذه هي ألواح الإمبراطور ضمتها بعضها إلى بعض لكيلا تصاب بأي ضرر ولكن قبل إرجاعهم خطر لها بموجب فضولها أن تقرأ ما في الألواح، فوجدت قائمة بأسماء الضحايا الذين حكم عليهم الإمبراطور بالموت في اليوم التالي وكان اسمها يتصدر الجميع.

عندها ركضت مسرعة إلى عشيقها ايليكتوس وهتفت به قائلة: «انظر كيف سنحتفل في أول يوم من أيام السنة الجديدة»! وعندما نظر إلى القائمة وجد اسمه وأسماء الكثيرين ومنهم لاتيوس Lateus ومعظم المتآمرين. وكانت الاستعدادات لتنفيذ المؤامرة لم تتم بعد ولكنهم لم يستطيعوا الانتظار أي لحظة أخرى؛ فقد كان من الواضح أن أحد المخبرين قد خان أسرارهم وأخبر عنهم وأنه ما لم يمت كومودوس ضمن الساعات القليلة القادمة فإنهم سوف يموتون جميعاً في اليوم التالي.

ختم ايليكتوس الألواح وأرسلها سراً إلى لاتيوس في مخيمات العساكر. وكان الجنود المتمركزون هناك من المخلصين لكومودوس الذي كان حريصاً على نيل ولائهم بالإنعام عليهم بالهدايا الكثيرة. ولهذا كان من الضروري إخبار لاتيوس وإخطاره بالأمر دون تأخير، حتى يستعد للسيطرة على أي انفجار يمكن أن تسببه الأزمة، وكان لديه الوسائط أيضاً لإنذار الآخرين الذين وردت أسماؤهم وكانوا في خطر.

وصل لاتيوس شخصياً استجابة للرسالة وادعى أنه قد أتى للتشاور مع ايليكوس حول موكب المصارعين في اليوم التالي، وكان الإمبراطور قد نقل مكان إقامته إلى قصر واقع على التلة الكاليه Caelian Hill وهو حي يسكنه الأغنياء، إذ كان يشكو عدم استطاعته النوم في قصره السابق وكان هذا الانتقال مناسباً للمتآمرين في هذه الساعة الحرجة، فقد كانت الفرصة مناسبة هنا أكثر من القصر الرسمي لاتخاذ الإجراءات اللازمة للظروف الراهنة دون إثارة أي انتباه. وقد اتفق ثلاثتهم لاتيوس وإيكليمكتوس ومارشيا على العمل معاً في الحال ودون تأخير. ففي أي لحظة سوف يعود كومودوس من الحمام وعندما اقترحت مارشيا (التي كانت في هذا الاقتراح أمازونية أكثر منها مسيحية) أن تدس له السم. وافق الآخران بارتياح ورجع لاتيوس إلى مخيمات العساكر لينتظر خبر نتيجة تلك العملية.

تأخر كومودوس في الحمام حيث كان يشرب مع جماعة من رفقائه المقربين، وبهذا وجدت مارشيا أن لديها الوقت الكافي للقيام باستعداداتها للعمل. وكانت تعلم أنه كان يطلب منها أن تشرب أول نخب من الخمر معه، فقررت ألا تدس له السم في الشراب بل في اللحم وكان هذا فناً لا تجيده، وعندما جلبت له الطعام أكله فقد كان ثملاً وجائعاً فلم يستطع أن يميز طعماً غريباً في اللحم. ثم استغرق في النوم وعندها أصدرت الأمر لكل من كان حاضراً أن يترك الإمبراطور لينام دون أي إزعاج.

وبعد ساعة استيقظ الإمبراطور وهو يئن ويصرخ من وجود آلام في بطنه. فقد بدأ السم يعمل في جسمه أخيراً ولكنه بدأ يتقيأ فجأة لأن مزج السم لم يكن كافياً، أو لأن الخمر التي احتساها قبل الطعام سببت له الإقياء، وقد تقيأ فترة طويلة سببت لها الخوف من أن يفرغ السم الذي في جوفه ويتخلص منه ثم يعود إلى سابق صحته. وهكذا تركته وهي تشعر باليأس لتطلب النجدة.

وجدت أحد الخدم وهو نارسيسوس وهو رياضي قوي، وقد سلطت عليه كل ما فيها من سحر وإقناع فجعلته يدخل معها إلى الغرفة. وكان كومودوس يسبح في بركة من الإقياء بعد أن فطن أن شخصاً ما قد دس له السم. وهكذا بدأ يرعد ويزبد ويهدد بالانتقام وقبل أن يستطيع الإمبراطور أن يستعيد قواه أمسك به نارسيسوس وخنقه.

وفي هذه الأثناء كان قد حل الغسق فعمدت الفتاة إلى لَفِّ الجثة بمساعدة نارسيوس بكومة من البطانيات القديمة وسلمت الجثة لاثنين من العبيد وأمرتهما بإلقائها خارجاً على أنها حزمة من الأوساخ، وقد سمح الحرس لهذين العبدين بالخروج دون إبطاء إذ لم يروا شيئاً يثير الشك والريبة فيما كانا يحملانه ولاسيما في الظلام. وضع هذان الجثة في عربة ورميا الحزمة خارج المدينة وقد كان هنالك قليل من الناس في الشوارع في برد الشتاء القارص.

وكان معظم الناس قد أووا إلى بيوتهم يحتفون بأصدقائهم ويستعدون لاحتفالات عيد رأس السنة القادم.

توجه ايلكتوس إلى مخيمات العساكر ليخبر لاتيوس عن نجاح الخطة وليتدبر أمر ما يجب عمله بعد ذلك. وقد وجد جماعة من المتآمرين مجتمعين هناك ولكن بيرتناكس الذي كان حذراً من أن يفضح نفسه لم يكن حاضراً بينهم، وكان غيابه نكسة لخططهم فذهبوا جميعاً إلى بيته لدعوته. وجدوا الباب الخارجي مقفلاً وكان كل شيء مقفلاً. ولكن طرقهم على الباب أثار البواب الذي فتح لهم بتردد ولم يسمح لهم بالدخول حتى رأى لاتيوس رئيس الحرس الإمبراطوري الذي كان يخشى من إغضابه. وقد أخبرهم البواب أن سيده في فراشه وأنه سوف يذهب إليه ويعلن له قدومهم.

وكان بيرتناكس دون شك يعلم سبب الزيارة. ولكن لاتيوس لم يكن قد أعلمه بقضية الألواح التي وجدتها واكتشفتها مارشيا. ولم يكن من طباع بيرتناكس أن يتخذ عملاً حاسماً بسرعة وكان عمره ستة وستين عاماً، وقد رفع نفسه بجده واجتهاده من أصله الوضيع إلى مركز مرموق في الدولة، وكان يخشى الوقوع في أي خطأ يودي به. وكان قد سمح لنفسه بإغراء اللون الأرجواني (وهو لون ملابس الإمبراطور) بالاشتراك في المؤامرة التي يجب أن تكون محكمة التدبير للوصول إلى النجاح، ولكنه انكمش على نفسه عندما وجد أن الأمور قد تطورت بسرعة واتخذت شكلاً حاسماً قبل أن تنضج. ولهذا فضل الإيواء إلى الفراش والانتظار إلى الغد ليرى ماذا يخبئه له الغد من مفاجآت ولربما لم يكن اسمه مدرجاً في قائمة الإعدام.

استقبل زواره بريبة ولم يُخف خوفه من أن يكونوا قد قادوه إلى فخ وحتى عندما طمأنه لاتيوس أن الإمبراطور قد مات ظل بعيداً عن الاقتناع وأصر على إرسال رسول لمعاينة الجثة حيث كانت ملقاة بين الأوساخ في ظاهر المدينة. وعندما تأكد الخبر بعد المعاينة وأصبح من الواضح أن عليه أن ينتهز الفرصة ويستلم جائزته، تغلب على تردده أخيراً ووافق على مصاحبة الآخرين إلى المخيمات ليقدم نفسه للجنود بصفته إمبراطورهم الجديد. ونظراً لأن الجنود كانوا مخلصين لكومودوس فإن الإجراءات يجب أن تتخذ بحيطة وحذر، فلا يجب أن يذكر شيء عن موضوع الاغتيال. فقد كانت القصة التي سترد للجنود أن كومودوس قد مات متأثراً بالسكتة الدماغية، وأُرسل ضابط لإحضار الجثة ووضعها في مكان أمين حيث يجب العمل على تخليص الجثة من آثار العنف بحيث يبدو الموت طبيعياً وكانت هنالك حاجة لحماية الجثة من أعداء كومودوس الذين كانوا يضمرون له الشر والانتقام لاسيما رجال مجلس الشيوخ الذين كان يلذ لهم الأمر بأن تُجَرَّ الجثة في شوارع روما كجثة أي مجرم وإن أي إهانة للإمبراطور الميت من هذا النوع سوف تكون بمثابة إهانة للحرس الإمبراطوري.

بقيت ساعة أو ساعتان لطلوع الفجر، فجر السنة الجديدة ولكن جرت العادة في مثل هذه المناسبات أن يستفيق أهالي روما باكراً ويتجمع الناس حول بيوت الأغنياء لتحيتهم ونيل بعض عطاياهم وهباتهم. وكانت الشوارع تكاد تمتلئ عندما مر بيرتناكس وصحبه راكبين ومتجهين إلى المخيمات وسرت الإشاعة بسرعة أن الإمبراطور قد مات وكان من مصلحة المتآمرين أن يعلم الشعب بالخبر، ولهذا لم يحنقوا عندما تبعتهم شرذمة من الشعب الذين كانوا تواقين لمعرفة الحقيقة وللإفضاء بالخبر لأعيان روما الذين لا شك أنهم سوف يبتهجون لمعرفة خبر تخلصهم من كومودوس المكروه. ومع أن لاتيوس كان وطيد الأمل أن احترام الجنود له كرئيس للحرس البريتوري سيكون كافياً لإبقائهم في حالة من النظام والانتظام، إلا أنه عول أيضاً على الدعم الشعبي حوله الذي اتخذه نوعاً من النجدة جاءته من حيث لا يدري. ولم يبذل لاتيوس وصحبه أي مجهود عند وصولهم إلى المخيمات لمنع الناس من الدخول أيضاً. وبالنتيجة فقد أصبح عدد الناس الذين حضروا إلى المكان يقارب عدد الجنود وكان الجنود أنفسهم ذاهلين وقد دعوا إلى الانتظام والاصطفاف في تلك الساعة المبكرة. كانت العادة تقضي منع حمل السلاح من قبل الجنود في أيام الاحتفالات.

أصغى الجنود بصمت ووجوم عندما أعلن لهم لاتيوس موت الإمبراطور كومودوس بسبب سكتة دماغية، ودعاهم لإعلان بيرتناكس إمبراطوراً خليفة له. عندها ارتفعت بعض الأصوات بالموافقة. فاكتفى لاتيوس بهذه الأصوات وذهب ليعلن للملأ أن الجنود قد وافقوا على تنصيب بيرتناكس إمبراطوراً بالإجماع وقد أخرست جميع الاعتراضات في الهتافات الشعبية التي كانت تصدر عن الكتل البشرية التي كادت تحطم أبواب المخيمات العسكرية.

تقدم بيرتناكس نفسه ليشكر الجنود على منحه ثقتهم وكان ذا شكل مهيب ولحية بيضاء يميل جسمه إلى السمنة ولكن وقفته كانت تتسم بالجلال. ومع أنه كان ذا حديث حسن، إلا أنه لم يكن خطيباً مفوهاً، وقد سبب خطابه شعوراً بالتذمر بين الجنود، لاسيما كلماته الختامية حين قال: «هنالك صعوبات كثيرة في الوضع الراهن أيها الرفاق الجنود ولكننا بتعاونكم نستطيع تقويم بعض الأمور».

وكان يأملون منه أن يتابع خطة كومودوس في إجراء الأموال بلا حساب وإجراء المنح في أوقات متعددة وتوزيع الهبات الكريمة. وقد أصغوا له بامتعاض فلم يكونوا مستعدين للاشتراك في إصلاح اقتصادي على حساب مصالحهم ولكنهم لاذوا بالصمت وأخفوا شعورهم في الوقت الراهن.

رجع الإمبراطور الجديد وأصدقاؤه إلى المدينة لنيل موافقة مجلس الشيوخ. وكان الوقت قد قارب الفجر وكان مجلس الشيوخ لا يزال مقفلاً ولم يحضر إليه أحد ولم يجدوا البواب الذي كان قد تسلل إلى إحدى الحانات ليشرب نخب السنة الجديدة. وفي أثناء بحثهم عن البواب التجأ بيرتناكس احتياطاً من البرد إلى أحد المعابد المجاورة حيث وافاه أحد أعضاء مجلس الشيوخ المسنين وهو كلوديوس

بومبيانوس Cladius Pompeianus وهو زوج ابنة ماركوس اوريليوس، وكان قد أصابه شواظ من غضب كومودوس كما حصل لبقية أصدقاء ماركوس اوريليوس ومستشاريه، ولهذا فقد انسحب هذا من ممارسة أي نشاط في الحياة العامة وكان بيرتناكس وكلوديوس صديقين قديمين، كان بيرتناكس قد أحرز أول ارتقاء في المناصب العسكرية بفضل كلوديوس هذا ونفوذه القوي. وكان الاثنان يحتفظان لبعضهما البعض بأطيب العلاقات الودية وقد شرح كلوديوس لصديقه أنه قد استيقظ في الصباح الباكر وخرج ليتنسم الأخبار بعد سماعه بموت كومودوس الذي سبب له الأسى والأسف على حد قوله. ومن المحتمل نظراً لما هو معروف عن هذا الرجل أن أقواله كانت صادرة عن قلب مخلص وأنه لم يكن مشتركاً في المؤامرة؛ فقد كان مخلصاً لماركوس اوريليوس وعلى الرغم من خيبة أمله في ابنه كومودوس والوحشة والغربة التي حدثت بين الرجلين، إلا أنه لم يستطع أن يتمنى أي ضرر يصيب ابن الرجل العظيم الذي يحترمه وهو زوج ابنته.

كانت نتيجة هذا الحديث أن شعر بيرتناكس بالخجل وحرم من تألق طموحه، فلم يكن هنالك شيء مشجع يدعوه للاستمرار بعد استقبال الحرس البريتوري الفاتر له. فقد بدأ يفكر في ظلمة ذلك الصباح الشديد البرودة في المخاطر والمشكلات التي ورط نفسه بها، وهكذا هبطت روحه المعنوية إلى الحضيض. وقد أخبر كلوديوس أنه كان ينتظر اجتماع مجلس الشيوخ لإعلان قبوله إمبراطوراً ودعاه ليتخذ مكانه في المجلس. ولكن كلوديوس رفض الاشتراك وغادر المكان.

وفي هذا الوقت كان مجلس الشيوخ قد تم نصابه وكان الجميع يشعرون بالسرور لزوال حكم الطاغية. ويصف شاهد عيان تلك الجلسة والإجراءات التي اتُخِذَت وهو المؤرخ (ديو) الذي كان عضواً في مجلس الشيوخ أيضاً، حيث وصف الحماس الذي قوبل به بيرتناكس عند دخوله والجمهور المحتشد للتقدم نحو المجلس، وعندما تكلم بيرتناكس ظلت روحه المعنوية منخفضة. فقال:

«لقد سماني الجنود إمبراطوراً ولكني لا أرغب في هذا المنصب، وأنا مستعد للاستقالة هنا والآن نظراً لكبر سني وسوء حالتي الصحية ونظراً للأحوال السائدة المؤسفة... ويقول ديو أن السببين الأولين للاستقالة كانا غير ذي قيمة، فقد كان في الستينيات من عمره وفي صحة جيدة ما عدا وجود شيء من العرج في مشيته. ولكن السبب الثالث وهو سوء الحالة السائدة في البلاد كان حقاً سبباً وجيهاً يفسر تردده، كان من الواضح أن التفاصيل قد بدأت تتسرب حول الأسلوب الذي لقي به كومودوس مصرعه، وقد كان الحادث الوحيد في المجلس الذي حال دون انسجام الوضع في المجلس هو قيام سوسويوس فالكو Sosiouso وهو أحد القناصل الذين كان من المقرر استلامهم وظائفهم في ذلك اليوم (والذين قرر صاحب الجلالة الإمبراطور السابق حجب ذلك المنصب عنهم) وتدخله ليطرح سؤالاً فيما إذا كانت السلطة الممنوحة لبيرتناكس تكمن

ممارستها بالحقيقة في شخصيتي لاتيوس ومارشيا اللذين كانا يعملان من وراء الستار. وقد كان كلا هذين الشخصين غير مألوفين لدى مجلس الشيوخ، فقد كانت مارشيا خليلة الإمبراطور السابق والآخر رئيس حرسه وكان كلاهما مذنباً في أعين الكثيرين من الحاضرين الذين كان يهمهم الحصول على الحقائق التفصيلية. وكانت هذه التهمة موجعة لبيرتناكس أيضاً ولم يستطع ردها؛ فقد كان ينتظر كإمبراطور المواقف العدائية على جبهتين: فالحرس البريتوري لن يتسامح بسهولة في قضية مقتل الإمبراطور، وأعضاء مجلس الشيوخ أنفسهم لن ينسوا لفترة طويلة غيرتهم من رجل غريب عن المجلس.

ولكن في تلك اللحظة لم يكن في المجلس أي استعداد لتقبل أي مشاعر أو عواطف عدا مشاعر السرور والغبطة. فقد كان جميع الجالسين في المجلس يعيشون سنوات طويلة في خوف من كومودوس وطباعه المتوحشة. وكانت إزالته وإزاحته المفاجئة، وهو ذلك الكابوس والتهديد المصلت فوق رؤوسهم سبباً في انفجار موجة من السرور الذي لا يمكن مقاومته وضبطه، وهكذا فقد أُلغي اعتراض فالكو وأُنعم على بيرتناكس بالألقاب المعهودة وسمي إمبراطوراً. وحالما انتشر الخبر في المدينة ظهرت مشاهد السرور وأخذ الرعاع يطوفون في الشوارع يكسرون كل تمثال لكومودوس يجدوه أمامهم، ويرمون على الأرض أي نصب من الأنصاب ذكر فيه اسمه، وقد طالبوا بتسليم جثته لهم حتى يعاملوها بما تستحق من احتقار وهزء. وشعروا بالغضب عند رفض طلبهم هذا. وهكذا أمر بيرتناكس الذي كان يتوق للمحافظة على شعور الحرس البريتوري بأن يدفن جثة الإمبراطور السابق بشكل يليق بمقامه كإمبراطور.

لم يكن الحرس البريتوري هو الفريق الوحيد الذي كان يراقب مجريات الأحوال بانزعاج وترقب، بل كان هنالك أفراد الطبقة الوسطى والمزارعون وأصحاب الحرف والفنانون، الذين تلقوا نبأ مصرع كومودوس بصدمة لاسيما عندما تسربت التفاصيل؛ فقد كانت معرفة هؤلاء به لا تزيد عن كونه رئيس الدولة ولم يمارسوا أي شيء من خصوصياته ومزاجه أو حكم الإرهاب الذي فرضه على البلاط. وكان يكفي لهم أن يعلموا أن حكمه كان سبباً من أسباب الاستقرار السياسي الذي كانوا بحاجة إليه لكسب أرزاقهم ومعيشتهم وتربية أطفالهم. ولهذا لم يكن لديهم أي ميل للعطف على الرعاع الذين انتهزوا فرصة مقتله ليملؤوا الشوارع صراخاً وصخباً. والحقيقة أن روما كانت في القرن الماضي قد تمتعت بالاستقرار والأمان الذي سببه حكم الأنطونيين وما فيه من انتقال منتظم في الحكم من إمبراطور إلى إمبراطور معين. وكان أقرب حادث يذكرهم بهذا الحادث هو مقتل الإمبراطور دوميتان Domitian عام 96م. وكان الناس يأملون بإخلاص أن تكون عواقب مصرع كومودوس سليمة كما كانت بعد مصرع دوميتان فقد انتخب في ذلك الزمن عضو مجلس الشيوخ اللطيف الدمث

(نيرفا) Nerva بدلاً من دوميتان، المكروه وحكم هذا بهدوء ودون أي أخطاء أو إساءات، وخلفه رجل شاب واعد كان قد تبناه وهو الإمبراطور تراجان Trajan.

ولكن كانت هنالك سابقة أقدم من مقتل دوميتان. ففي عام 69م، وهي السنة السيئة الصيت والسمعة حين حكم روما أربعة أباطرة، خلقت تلك الحالة من فراغ السلطة بعد انتحار نيرون حالة شجعت قواد الجيش في مختلف الولايات بالتقدم نحو روما، حيث حاول كل قائد بدوره ارتداء الثوب الأرجواني بنفسه. وكانت النتيجة تفشي الفوضى والحرب الأهلية حتى ظهر فاسباسيان Vespasian أخيراً وهو رابع إمبراطور وانتصر ووضع حداً للفوضى بتأسيس أسرة مالكة جديدة بالقوة. وكان هنالك واجب ملح على بيرتناكس أن يؤكد للعموم وللرأي العام أن هذه الحوادث سوف تعيد المثل الذي حدث عام 96 وليس المثل الذي حدث عام 69. وهكذا أرسل الأخبار بسرعة إلى الولايات ليعلن عن استلامه السلطة ويطلب منهم الولاء والطاعة، ولقد رفض الكثيرون تصديق ما سمعوه. فقد مضى عهد طويل قبل أن تحدث مثل هذه الاضطرابات في عاصمة الإمبراطورية. وهكذا وضع الولاة أولئك الرسل في غياهب السجون بصفتهم من حملة الأخبار السيئة المختلفة. ويقول (ديو) المؤرخ إن حكام الولايات لم يرغبوا بتصديق خبر وفاة كومودوس، وذلك لأنهم كانوا يخشون من غضب كومودوس فيما إذا كان ذلك الخبر كاذباً بينما كانوا يأملون بتسامح وغفران بيرتناكس إذا ظهر حقيقة أن الرسل قد سجنوا دون حق.

لقد ظل النظام الجديد معرضاً للخطر. فقد حدث اضطراب في صفوف الحرس البريتوري في اليوم الثالث للحكم الجديد عندما دُعي الجنود للتقدم لأداء اليمين، وقد كان الجنود قد حنقوا على رئيسهم بسبب الطريقة التي أجبرهم فيها على الاعتراف ببيرتناكس إمبراطوراً. ولهذا تحولوا فجأة إلى أحد الموجودين في احتفال القسم وهو أحد رجال مجلس الشيوخ المرموقين ويدعى تريباريوس متيرنوس Triarius Maternu وأعلنوه إمبراطوراً وبدؤوا يقسمون يمين الولاء له بدلاً من بيرتناكس، ولكن هذا رفض ذلك اللقب وهرب من الاجتماع، ولكن الجنود أمسكوا به وشدوه إليهم فتمزقت ثيابه عند هربه وهذا ما حدا ببعض الذين عطفوا عليه من الجنود بتركه يذهب في حال سبيله. فهرب عارياً عبر الشوارع متجهاً إلى القصر الإمبراطوري ليكون أول شخص يشرح لبيرتناكس جلية الخبر وينفي عن نفسه أي نية سيئة. وقد قبل بيرتناكس عذره وطيب خاطره. ولكن تريباريوس Triarius ترك روما بعد وقت قصير ليعيش في الريف، ولم يستطع نسيان التعليقات والهزء والعار الذي لحق به وهو يسير عارياً في شوارع روما.

وفي هذه الأثناء أصبح لاتيوس في مركز حرج لا يحسد عليه، فقد لحقت به وبأكليكتوس ومارشيا مسؤولية اغتيال كومودوس الذي كان له وقع شديد في نفوس الجنود الذين كان لاتيوس رئيساً لهم. وقد رأى أن أحسن طريقة للاحتفاظ

بـولائهم ومصـالحتهم أن يقـنعهم أنــه سـوف يعـاملون معاملـة كريمـة علـى يـد الإمبراطور الجديد أكثر من المعاملة التي صادفوها على يد الإمبراطور القديم. ولكـن هـذه الفكـرة لـم تـرق لبيرتنـاكس الـذي كـان مقتصـداً فـي طبيعتـه، إذ كانـت الظروف القاسية التي صادفته في طفولته قد علمته التوفير بدلاً من التبذير. ولهذا فقد كان مقتنعاً بوجوب تخفيض جرايات الجنود بدلاً من زيادتها وهذا ما لمح بـه بشكل يخلو من اللباقة في أول خطاب له بين الجنـود فـي صـبيحة يـوم رأس السـنة الشهير. وتبريراً لسياسته هذه كـان يشير إلـى تضـاؤل المـوارد الماليـة فـي خزينـة الدولـة بسبب إسراف كومودوس. ولكـن أخيراً توصـلوا إلـى خطـة اعتبـرت حـلاً مؤقتاً للنـزاع.. فقد تقـرر بيـع جميـع الأشـياء التـي كـان كومـودوس قـد احـتفظ بهـا للألعاب والترف والمتعة مثل الدروع المكلفة الغالية الـثمن والأسـلحة البراقـة التـي كانـت تسـتعمل عنـد عـرض المصـارعين والمجالـدين، وعربـات السـباق الفخمـة والملابـس الغاليـة الـثمن والمجـوهرات والتحـف الغنيـة، وعـدد مـن العبيـد والإمـاء الجمـيلات. وقـد خـدمت فكـرة البيــع نـاحيتين؛ فقـد عوضــت علــى الخزينــة الإمبراطورية ما فقدته أولاً، وأظهرت للملأ مساوئ كومودوس وإسرافه ثانياً.

وقد ساهم لاتيوس في هذه الحملة بأن لاحق أولئك الذين كانوا من حُسَّاب كومودوس ويعيشون في رخاء مما كان يرسله لهم من أموال، فعمد إلى مصادرة ثروات هؤلاء النـاس وفضـحهم أمـام الجمهـور بـأن كشـف أمـورهم. وكانـت هـذه إحدى عادات كومودوس نفسه وهي السخرية بمرؤوسيه لاسيما عندما تنزل بهم نازلـة.

لقد كانت الأموال التي جمعت بهذه الطريقة كافية لتهدئة الجنود وشراء فترة من الراحـة والاسـتجمام بالنسبة للحكم الجديد. وقد كـان بيرتنـاكس حريصـاً علـى المحافظة على حسن النيـة والانسـجام الـذي أظهـره مجلـس الشـيوخ للحكـم الجديـد. ولكـي يبـرهن علـى عدالتـه ومرونتـه بالنسـبة للطغيـان الـذي كـان سـائداً فـي عهـد كومودوس، أمر بيرتناكس بإعادة النظر في قضايا أولئك الأشخاص الذين أعدموا ظلمـاً فـي عهـد كومـودوس، ومعاقبـة المخبـرين الكـاذبين، ثـم نبشـت قبـور الـذين أعدموا ظلماً وأعيد دفنهم باحتفـالات مهيبـة واحتـرام فـي مقـابر آبـائهم وأجدادهم، وقد أحدث بعض التغيرات في وظائف الدولة. فعين في المنصب الذي كان يشـغله هو وهو منصـب عريـف مدينـة رومـا، فلافيـوس سلبيشـيانوس Flavius Sulpicianus وهو والد زوجته. أما ايليكتوس فقد بقي في منصبه السابق وتزوج من مارشيا وقد ظـل كلاهمـا مخلصـاً للحكـم الجديـد الـذي كـان لهمـا دور حاسـم فـي إنشـائه. ولقـد أرضــى بيرتنــاكس أولئــك المتعصــبين لعهــد الأنطــونيين والــذين كــانوا مــؤمنين بالسياسـة التـي اتبعهـا هـؤلاء وأن اسـتقرار الدولـة فـي عهـدهم قـد سـببته سياسـتهم الرشيدة، لذلك عمد بيرتناكس إلى رفض إعطاء لقب القيصر وولي العهد لابنه مع أن مجلـس الشـيوخ قـد وهبـه هـذا اللقـب، وقـد ادعـى بيرتنـاكس أن ولـده لا يـزال صـغيراً ولا يصـلح لهـذا الشـرف، ولكـن نيتـه الحقيقيـة كانـت متجهـة إلـى سبتموس

سيفيروس الذي كان قد وعده بهذا المنصب وبأن يتبناه كما ذكرنا سابقاً، وهذا تنفيذ أيضاً لسياسة الأنطونيين المحبوبين، ولكن بيرتناكس كان ينتظر الفرصة المناسبة لإعلان ذلك النبأ. وفي أثناء ذلك أرسل ابنه وابنته ليعيشا خارج البلاط في رعاية جدهما لأمهما، وقد كان كلاهما طفلين ولدا بعد زواجه من زوجة أصغر منه سناً بكثير.

كانت سياسة المصالحة هذه لا تخلو من الفائدة؛ فقد عادت تلك الشخصيات المرموقة المخلصة في عهد ماركوس اوريليوس إلى الظهور والاختلاط في الحياة العامة ومن جملتهم كلوديوس الذي كان بيرتناكس قد عرض عليه المنصب الإمبراطوري في ذلك الصباح شديد البرودة من يوم رأس السنة الشهير وهما جالسان في مجلس الشيوخ. ويعلق المؤرخ (ديو) على ذلك بإبداء عجبه لرجوع كلوديوس إلى الحياة العامة مع أنه كان يدعي أيام كومودوس أن نظره لا يساعده، ولكنه عاد فجأة وإذا بنظره قد عاد كما كان. وقد عامله بيرتناكس باحترام وكان يدعوه للجلوس بجانبه أثناء المناقشات في مجلس الشيوخ. ويضيف (ديو) قوله إن بيرتناكس كان يعامل الجميع بالمساواة التامة وكان الوصول إليه سهلاً، وقد أبدى كل استعداد لسماع أي رأي من أي شخص مع الإجابة بصراحة عن كل سؤال إجابة رجل لرجل.

يمكننا اعتبار (ديو) متحيزاً لبيرتناكس، ولكنه كان يصف ما يلاحظه بدقة وأمانة ومن الواضح أن بيرتناكس الرجل العصامي الذي صنع نفسه بنفسه كان محافظاً على طبيعته الأصيلة البسيطة وذوقه المكتسب من تربيته القويمة. وكانت بساطته سبباً في إبداء ملاحظات الهزء والسخرية من قبل أعدائه. وحتى ديو الذي كان يحضر الولائم التي كانت تقام في القصر طالما علق على بساطة الطعام والطبخ. ولكن إذا كان طعامه بسيطاً فإن عشرته كانت تقدم غذاء عقلياً لضيوفه. فقد كان بيرتناكس يتمتع بحديث حسن جذاب، وعندما كان يتناول الطعام وحده مع زوجته كان يدعو أحد أصدقائه القدامى لمشاركته وهو زميله عندما كان معلم مدرسة.

وهنالك جانب آخر من شخصيته قد كشفه النجاح الذي لاقاه في خدمته العسكرية. فقد كان بعض الناس يتهمونه بالازدواجية، ففي حين كانت الابتسامة لا تفارق محياه كان لا يتورع عن التفوه بالكلمات الشديدة الوقع في الظروف الحرجة. ففي الجيش كان معروفاً عنه أنه ضابط حازم محافظ على النظام وقد اكتسب بذلك الاحترام والشعبية لدى جنوده الذين كانوا يحاربون تحت قيادته لاسيما على ضفاف نهر الدانوب حين كان يخدم في الحروب التي خاضها ماركوس اوريليوس. ففي عام 186م وعندما كان والياً على بريطانيا حرضته إحدى الفرق المتمردة أن يعلن نفسه إمبراطوراً نكاية بالإمبراطور كومودوس، وقد كان هذا العرض مؤلماً له ولطبيعته الحذرة لاسيما كراهيته الشديدة للفوضى وعدم النظام. ولهذا رفض هذا الطلب

وعاقب كل من قام بالتمرد دونما رحمة أو شفقة، وذلك لأن سوء سلوكهم قد وضع حياته في خطر، ثم أسرع في الكتابة لكومودوس شارحاً له ما حدث ومبرئاً نفسه من المسؤولية.

وقد كانت حقيقته التي ظهرت للعالم هي أنه رجل جدي وخادم أمين للدولة وجدير بالثقة محب للقانون، ولكنَّ كل ذلك لم يمنعه من الاشتراك في المؤامرة ضد كومودوس عندما دعاه أصدقاؤه في روما لاستلام مقاليد الحكم. ولكن هذا يختلف عن خطة أولئك المتمردين الذين دعوه لإعلان نفسه إمبراطوراً وهو في بريطانيا. فالمتآمرون كانوا رجالاً ذوي سلطة عريقة ونفوذ كبير. وقد عرف من خبرته كعريف لمدينة روما أن كومودوس كان سيئاً، ولم يتمتع بأي شعبية في روما، ومن السهل القضاء عليه، ولا شك أن له الفضل في اعتقاده بضرورة تغيير شكل الدولة مراعاة للمصالح العامة. ومع ذلك فقد رأيناه ينكمش ذعراً عندما جد الجد وبدأ العمل خوفاً من وقوع كارثة، ومع أنه اقتنع أخيراً عندما ثبت له أن كومودوس قد مات، إلا أنه ظل متردداً. ولم يستطع أن يتغلب على هذا التردد على الرغم من نجاحه. وقد بدا وكأنه غير مصدق أنه أصبح إمبراطوراً. ومع ذلك فقد كانت لديه المؤهلات اللازمة لاحتلال هذا المنصب، وكان أصدقاؤه شديدي الأمل والثقة به. فقد كان مستحوذاً على تفكيره بعض الأفكار التي كانت ستثمر لو أتيح له الزمن المناسب لتنفيذها، مثل خطته بتمليك الفلاحين أي أرض غير مزروعة سواء كانت من أملاك خاصة أم من أملاك الدولة، وإعفاء هؤلاء الفلاحين من الضرائب لمدة عشر سنوات دون دفع أجرة، وكان ينوي نشر برنامج للإصلاح أثناء الاحتفال بعيد باريليا Parilia وهو عيد تقليدي وطني للفلاحين ويعتبر احتفالاً سنوياً بتأسيس روما، وكان تاريخ هذا العيد 21 نيسان ولكن أتى ذلك العيد وقد مات بيرتناكس.

وحالما نَفَذت الأموال التي حصل عليها بيرتناكس من بيع أدوات الترف في القصر ومن المصادرات بدأت المتاعب، وعادت المشكلة إلى ما كانت عليه، ولكي يرضي أطماع وطلبات الحرس البريتوري اضطر بيرتناكس لتقليص الموارد اللازمة لإدارة الدولة. فقد كانت محاولته لحل تلك المشكلة على حساب الجنود قد باءت بالفشل إذ إنها أثارت عليه حفيظة الجنود واتهم بالبخل والتقصير.

فقد كان الحرس البريتوري بدعة ابتكرها أغسطس في أول أيام بداية الإمبراطورية لحماية نفسه شخصياً، فأصبحت هذه الهيئة تغار على مصالحها وامتيازاتها وكونت طبقة عسكرية جديدة في المدينة، ولم يكن هنالك من عساكر سواها وسوى الكتائب المدنية وهم قوة الشرطة. وكان الإمبراطور القوي يستطيع استخدام هذا الحرس للقضاء على أي ثورة داخلية تقوم ضده، وعندما أصبحت الحكومة الإمبراطورية ضعيفة وأُهمل النظام تحول الحرس البريتوري من خدم إلى أسياد، ومارسوا سلطة ترهيب الإمبراطور. وقد مر زمن طويل قبل أن يحصلوا على تلك الفرصة الذهبية. ولكنهم كانوا حريصين على انتهاز

هذه الفرصة الآن. لقد كان الدور الذي أداه لاتيوس دوراً طفيفاً. ومن المعروف أن خلافاً قد نشب بينه وبين بيرتناكس وكان السبب إنقاص جراية الجنود طبعاً. ولهذا فقد رفض التخفيض لأن أي تمرد في المخيمات كان تهديداً لسلطته كعريف للحرس البريتوري. وعندما نبذ بيرتناكس نصيحته ومشورته بدأ هذا بالتفتيش عن مرشح جديد لمنصب الإمبراطور وذلك طبقاً لرأي (ديو)، وقد وقع اختياره فجأة على القنصل فالكو Falco الذي كان قد اتهم بيرتناكس في صبيحة السنة الجديدة وفي مجلس الشيوخ أنه ألعوبة بيد لاتيوس ومارشيا. وهذا يعني أن فالكو كان ينتسب إلى جماعة من مجلس الشيوخ لم يستطيعوا اغتفار ضعة أصل بيرتناكس وعدم جدارته لاحتلال مركز الإمبراطور، ولهذا لجأ إليه لاتيوس وقد قبل هذا عرض لاتيوس طمعاً بالفائدة المرجوة. ولكن كانت هنالك نقطة ضعف في الخطة الجديدة وهي أن المحافظين في مجلس الشيوخ لم يكونوا على وفاق مع الحرس البريتوري فلم يكن للحرس البريتوري أي شعبية أو أغلبية في مجلس الشيوخ. ولهذا فعندما نشب التمرد كان بيرتناكس في ميناء أوستيا Ostia لبحث قضية القمح الوارد إلى روما والذي كانت المدينة بحاجة ماسة إليه. ولهذا هرع إلى روما لدى سماعه بحادث التمرد ودعا مجلس الشيوخ للاجتماع وطلب منهم الدعم. وكان بين المتفرجين من المجلس بعض جنود المخيمات الذين قطعت عنهم المساعدات التي كان يدفعها كومودوس، ولهذا بدأ هؤلاء بمقاطعة بيرتناكس وتهديده عندما بدأ يتكلم وكانت النتيجة عكس ما كانوا يبغون. فقد استجاب المجلس لنداء بيرتناكس وصوت باعتبار فالكو عدواً للشعب وهذا القرار معناه الحكم بالموت على فالكو. شعر الجميع بخيبة الأمل عندما عبر بيرتناكس عن رفضه إراقة دم أحد أعضاء مجلس الشيوخ، وأصر على منحه إرجاء تنفيذ حكم الإعدام واستبداله بالنفي من البلاد. ولم يكن هنالك من شيء أشد إيلاماً لفالكو من إجباره على النفي إلى دسكرته في الريف وانقطاعه عن ممارسة نشاطه في مجلس الشيوخ.

ولكن الجنود الذين أيدوه لم يلقوا مثل هذه الرحمة. فقد عمد لاتيوس الذي بقي دوره في تدبيره المؤامرة سراً مكتوماً أو ربما حصل على العفو والغفران، عمد هذا إلى جمع أولئك المسببين للفتن والشغب ونفذ فيهم عقاباً صارماً. ومن المحتمل أنه قد فرح لأن الفرصة قد سنحت له للتخلص منهم وهو يأمل أن تنسجم أموره بين الجنود بعد التخلص من هؤلاء وأن يعود الانسجام بينه وبين بيرتناكس وتعود المياه إلى مجاريها.

ولكن آماله لم تتحقق، فالعقاب الذي أُنزل بالبعض لم يكن رادعاً للباقين، بل بالعكس أثارهم أكثر مما تسبب في إخلادهم للسكون، فقد قرروا الانتقام للضحايا، وأقنعوا أنفسهم أن المقاومة العنيفة وحدها هي التي سوف تنقذهم من مصير مماثل لزملائهم المقتولين. وقد أحبط لاتيوس، إذ لم يعد لديهم أي احترام لسلطته. وعندما وصل الخبر إلى بيرتناكس في 28 آذار عن قيام مظاهر الفوضى في المخيمات

أرسل عريف المدينة وهو والد زوجته سلبيسيانوس Sulpicianus إلى المخيمات ليتناقش مع مسببي الفتنة. ولقد أثمرت المفاوضات في البداية، فقد تأثر الكثيرون منهم بالآراء التي طرحها سلبيسيانوس لإقناعهم بتخفيف حدة طلباتهم. ولم يقف ضده سوى أقلية ضئيلة من العسكريين يبلغ عددهم قرابة المئتين. ولكن عندما رأى هؤلاء أنهم قد فقدوا دعم وتأييد رفاقهم وأن التعقل والاعتدال بدأ يسود الموقف، لذلك قرروا العمل بأنفسهم وأن يجابهوا الإمبراطور شخصياً. فدخلوا المدينة وقد أشرعوا سيوفهم بوحدات متراصة (لقد كانت المخيمات بعيدة عن أسوار روما) وتقدموا عبر الشوارع متجهين إلى القصر الإمبراطوري على التلة البلاتينية وجرى كل ذلك في الصباح الباكر.

كان بيرتناكس قد رتب أموره بأن يحضر مناظرة شعرية في قاعة الاثينوم في روما ولكنه عندما سمع بقضية التمرد عدل عن حضور المناظرة وظل في بيته. وكان ينتظر بقلق أخباراً من سلبيسيانوس عندما ركضت زوجته لإخباره أن هنالك بعض الجنود يتجهون إلى التلة، وحالما نظر من النافذة تحقق من أصواتهم وتهديداتهم أنهم ينوون الشر وكان أول ما فكر به هو دعوة لاتيوس الذي كان معه في القصر رغم انحسار سلطته عن الحرس البريتوري، ولكن كان واجبه في مثل هذا المأزق إعادة النظام. وكان مرأى القائد ونغمة صوته سبباً في إشعال نيران غضبهم فقد حيوه بالصراخ والتهديد والسخرية، ولهذا فقد جذب عباءته وغطى بها رأسه وفر هارباً.

دخل الجنود القصر دون معارضة. فقد كان هنالك بعض الضباط الخونة في القصر الذين أنيط بهم حراسته ولكنهم كانوا من رجال كومودوس وقد أغاظتهم تلك القوانين الصارمة التي ابتدعها بيرتناكس للقضاء على الغش والفساد. وكان من سوء حظ بيرتناكس أن صرف حرسه الخاص الذين كانوا سيرافقونه إلى حفلة الشعر بعد أن قرر عدم حضور تلك الحفلة، ومع ذلك فقد كانت هنالك بعض العناصر المخلصة في القصر للدفاع عنه وهم يؤلفون عدداً من كتيبة من الخفر والعسس الليليين المدنيين الذين كانوا لا يزالون في الخدمة في ذلك الصباح ومعهم بعض المؤيدين لبيرتناكس. وقد نصحه أصدقاؤه أن يلجأ إلى غرفة داخلية حتى تهدأ الفتنة ولكنه رفض الاختباء معتبراً ذلك حطاً لكرامته وأصر على الخروج شخصياً لمواجهة المتمردين. وكان سلوكه يشبه ما روي عنه عند إخماد الفتنة في بريطانيا عندما عرض نفسه دون خوف أو وجل للخطر المحدق وبعد أن أصيب بجرح بليغ. فقد كان بيرتناكس حذراً وحريصاً في المعاملات السياسية، أما الآن فعليه أن يظهر شجاعته الشخصية القديمة. ولربما كان يعتمد على قدرته الخطابية لإقناع المتمردين ومصالحتهم.

خرج بيرتناكس إلى ساحة القصر يرافقه بضعة من الخدم وأمين سره المصري ايكليكوتس زوج مارشيا. وقد فوجئ الجنود بظهور الإمبراطور فأصابهم الخجل عندما رأوا وقار منظره ووقفته. وعندما خاطبهم وذكرهم بالولاء

المفروض عليهم لإمبراطورهم بدأ معظمهم بالإصغاء بسكون وأغمدوا سيوفهم ولكن قائدهم لم يغمد سيفه، وكان هذا أحد المتطوعين التنجاريين من ميوسي العليا وقد خشي هذا على نفسه من الانتقام إذا خلد رفاقه للسكينة والهدوء. ولهذا تقدم إلى الأمام مشرعاً سيفه وصاح قائلاً: «خذ هذا ما يُفرض على الجنود بالنسبة لك، وضرب بيرتناكس ضربة همجية بسيفه، عندها دب الحماس برفاقه فأشرعوا سيوفهم وبدأوا بطعن الإمبراطور طعنات أجهزت عليه. فهرب خدمه عدا ايكليكوتس الذي حارب ببسالة للدفاع عن الإمبراطور حتى قتل. لقد كان هذا حقاً رجلاً بكل ما في الكلمة من معنى، كانت عواطفه تتحكم به سواء كانت تلك العواطف موجهة لمارشيا أو كرهاً بكومودووس أو حباً وولاء للإمبراطور بيرتناكس.

وهكذا مات بيرتناكس بعد حكم دام سبعة وثمانين يوماً. قطع الجنود رأسه ووضعوها على سن رمح من رماحهم ورجعوا بها في موكب النصر إلى المخيمات، فأصاب الذعر المدينة لهذه الأنباء لاسيما مجلس الشيوخ حيث كان لبيرتناكس مؤيدون كثيرون كما رأينا في حادث (فالكو). وحتى أولئك الشيوخ الذين كانوا يعيبون عليه كونه ليس منهم وكانوا يتوقون لإزاحته شعروا بالحنق والانزعاج لاسيما وأن موته حدث على يد الحرس البريتوري الذي كان مهدداً فعلياً لسلطتهم. وأما الرأي العام وجمهور روما فقد ساد الحزن والأسى بينهم، ولم يكن حزنهم على فقدان بيرتناكس أقل إيلاماً من تخوفهم من ذلك المستقبل الذي أصبح يهدد روما في الصميم وهو أن تخلو روما من منصب الإمبراطور.

ولكن شعر الجنود بالغبطة والارتياح، فقد اعتبروا أنفسهم منتصرين وأن باستطاعتهم تكييف الأمور وتصريف الشؤون حسب هواهم. فليس هنالك أي قوة عسكرية في مدينة روما ولا في إيطاليا قادرة على الوقوف في وجوههم، وكانت المخيمات التي يسكنونها قلعة منيعة يصعب اقتحامها وهكذا تحصنوا هناك لتقرير ما بوسعهم فعله. وكان سالبسيانوس Sulpicianus لا يزال بينهم ولم يعد يملك صفة مبعوث الإمبراطور بل أصبح مجرد سجين لا يستطيع الهرب. وقد كتم عواطفه عندما رأى رأس الإمبراطور الدامي يعلو سنان الرمح وحاول التفاوض معهم ليكون هو خليفة الإمبراطور المقتول. وسواء كان الحافز لهذا التحرك طموحه الشخصي أو مجرد رغبته الحقيقية في حماية زوجة الإمبراطور وهي ابنته وأبناء الإمبراطور وهم أحفاده أو لإنقاذ روما من الفوضى، إلا أنه أثر في الجنود بشكل جدي ليعتبروه مرشحاً لهذا المنصب، ولكن المفاوضات تعثرت نظراً لعدم اتفاقهم على الثمن الذي يجب عليه دفعه لقاء دعمهم العسكري وموافقتهم. وأخيراً فقد الجنود أعصابهم وعيل صبرهم وخرج قسم منهم ووقفوا فوق أسوار مدينة روما وصاحوا بأعلى أصواتهم معلنين للجميع أن منصب الإمبراطور معروض للبيع لمن يدفع أكثر.

تجمهر بعض الناس ليسمعوا مقالتهم وانتقل خبر المزاد العلني من شفة إلى شفة ومضى وقت ولم يظهر أي مزاد. وعندما سمع رجال مجلس الشيوخ بما كان يحدث أصابهم الفزع والهلع لتلك الإهانة التي لحقت بكرامة الإمبراطورية في الصميم، واعتبرت فضيحة ليس لها نظير في تاريخ روما. وكان هنالك في روما رجل ذو ثراء فاحش يدعى ديديوس جوليانوس Didus Julianus وكان مشهوراً بالطمع والجشع للمال وسرعة تبذيره أمواله. وكان من طبقة اجتماعية مرموقة وكان يتوق لارتداء الثوب الأرجواني وقد تقلد عدة مناصب ذات صفات لا تخلو من المسؤولية في الدولة ولكنه سقط في زمن كومودوس بسبب قضية يعرفها الكثيرون. وكان ديديوس هذا يتناول عشاءه عندما سمع خبر المزاد العلني. وقد علق بعض ضيوفه بقصد تملقه أنه ليس هنالك من شخص في روما يستحق هذا اللقب أفضل منه. فوافقت زوجته وابنته بشوق على هذا الاقتراح وحثتاه على الذهاب حالاً والاشتراك في المزاد وبعد أخذ ورد اقتنع بالفكرة، فأسرع بالخروج من بيته متوجهاً إلى مخيمات الجند.

كان الجنود لا يزالون على الأسوار ينتظرون. وقف ديديوس تحت الأسوار وصرخ معلناً نفسه ومؤشراً بأصابعه عن المبلغ الذي سوف يدفعه، وعندما شعر أن صوته لا يصل إليهم، عندها أعاد الدلال الواقف على السور الرقم وعرضه على سالبيشيانوس وطلب منه أن يعطي رأيه فيما إذا كان بوسعه أن يدفع أكثر. فعمد هذا إلى رفع المبلغ وقد أخذ كل منهما يتنافس مع الآخر في رفع المبلغ. وحاول ديديوس استمالة الجند وحذرهم من أنه إذا ربح سالبيشيانوس فإنه سوف ينتقم لمقتل صهره بيرتناكس. ولكن سالبيشيانوس الذي كان واقفاً بين الجنود استطاع تطمينهم أنه لن يفعل ذلك وهكذا رفض الجنود إيقاف المزاودة. استمرت المزاودة ولكن سالبيشيانوس كان قد وصل إلى الحد الذي لا يستطيع به أن يدفع أكثر. فلم يكن يملك ثروة ديديوس. وأخيراً وعندما عرض ديديوس آخر رقم للمزاودة وهو ضعف الرقم الأول رست المزاودة عليه وانتهى الأمر بفوز ديديوس بلقب الإمبراطور بعد دفع مبلغ يساوي راتب خمس سنوات مقدماً لكل رجل يخدم في الحرس البريتوري.

نظر المتفرجون إلى هذا المشهد بعداء وغضب. إذ إن اغتيال إمبراطورين أثناء مدة ثلاثة أشهر كان دليلاً على الفوضى وانعدام الأمان والثقة، وزادت تمثيلية المزاد العلني الطين بله إذ إن ذلك قد اعتبر إهانة وجرح كرامة لهيبة وجلال روما. وعندما هتف الجنود معلنين ديديوس إمبراطوراً، ازداد غضب الجمهور وخرجت الصرخات المدوية المهددة بحيث أصبح هذا الرجل تحت خطر الإعدام فوراً وعندها أنزل الجنود سلماً فصعد عليه ديديوس وبذلك سلم من غضب الجماهير. ولم يجرؤ الجنود على فتح الأبواب لاستقباله خوفاً من اندفاع الجمهور في أثره. وبعد أن أخذ إلى داخل المخيمات وجد الحماية ولكنه لم يجد الشرف، فقد كان إمبراطوراً بشكل ألعوبة بيد الجنود الذين

لم يكونوا غافلين عن مطالبهم باسترداد جميع الامتيازات التي تمتعوا بها في عهد كومودوس وأنه يجب إرجاع اسم وألقاب كومودوس التي أزالها بيرتناكس إلى راياتهم علامة على تغير اتجاه الأمور والسياسة في الدولة لمصلحتهم. وبدلاً من لاتيوس الذي عزلوه من منصبه وضعوا مرشحين من رجالهم. وأما سالبيشيانوس فقد عزلوه من منصبه كعريف لمدينة روما ولكنهم سمحوا له بمغادرة المخيمات دون سلاح. وقد وافق ديديوس على كل طلباتهم فلم يكن في مركز يستطيع رفض أي طلب من حماته وأولياء نعمته. ثم قام الجند بتشكيل حرس رافق ديديوس إلى منزله في المدينة لحمايته من الشعب الثائر. وقد ألقيت الحجارة على موكب الإمبراطور الجديد أثناء مروره في شوارع روما وكانت أصوات الاستهزاء تلحق بالمزاود الأعظم الذي لبس الثوب الأرجواني المزيف.

وحالما وصل ديديوس إلى القصر استطاع التعبير عن شخصيته وشعر أن باستطاعته التمتع بهيبة وكرامة وظيفته الإمبراطورية الجديدة. وكانت هنالك وجبة طعام قد أعدت لبيرتناكس لا تزال ماثلة على المائدة. لم يوافق ديديوس على تناول ذلك الطعام بل طلب عشاء فخماً من مطعم من الدرجة الأولى. وبعد تناول العشاء اشترك مع جماعة من أصدقائه في لعب النرد ولكن جسم بارتناكس المفقود الرأس كان قد أخفي عن الأنظار في حظيرة مجاورة.

obeikandl.com